

قال كليلة: وإن الجنون قد يكون من بعض العقل، وذلك حين يقطع العقل بالظن الضعيف ويحكم بالرأي القائل وليس مع هذا الظن برهان ولا مع ذلك الرأي دليل، قال: زعموا أن نملة خرجت تسعى فيما يسعى له النمل، فأبيات على قبيلها أياماً وافتقدتها جماعتها، وكان يقال لها «طاحين» ١ (كلمة من لغة النمل يقال إنها منحوتة من طه حسين). فلما طال غيابها قالت نملة: يا أيها النمل إن طاحين لبلاء علينا، فإننا نعمل فيما يسرّنا الله له من الكدح والدأب على مذهب أسلافنا وعلى العرق الذي فينا وهو ميزان فضائلنا عيار مصالحتنا، وطاحين هذه أبداً ت العمل على مذهب الزنابير فيما ليس تحته طائل ولا معه فائدة إلا الطنين يذهب في الهواء فلا ينفعنا، واللسعُ يذهب في أجسامنا فيضرنا، وهي تزعم أنها تزيد الفائدة لنا ولا تنفك تعمل بزعمها ثم لا تعمل إلا ضرراً، فما أحراها أن تذهب بنا جميعاً في بعض حماقاتها، وإنني أحذركن ما تتورط فيه بجهلها، فإن المصيبة الواقعة بالناس من الرجل الأحمق يقع معها عذره فيكون مصيبة أخرى، وإننا نجد في كتب الحكم أنّه متى اغتر العاقل بالأحمق فتابعه وسكن إليه واتخذه دليلاً لمراشد أموره، كان في الأحمق المأفون حماقة واحدة وفي ذلك العاقل حماقاتان! قال: فانتدب لهاكبيرة من النمل كانت من قبل أستاذة طاحين، وقالت: ويلك أيتها الجاهلة المغروبة بقديمك وأهل قديمك! ألا تعلمين أن طاحين عالمة هذه القرية ومعلمتها منذ كذا وكذا وأنها لم تبرح في ألم ومضمض وعنة مما تفكري في تجدينا وإلحاقنا بأمة الزنابير والعصافير، لتكون لنا مملكة في الأرض ومملكة في الهواء؛ أما إنه ليس من الهلاك أن نهلك معها في سبيل التجديد، بل الهلاك والله أن نحيا معك ومع أمثالك في هذه المعيشة المملولة التي لا فن فيها ولا جمال ولا متعة من متع الطبع الجديد الساخرة الكافرة المستهترة بالفنون ولذاتها ومناعتها، فما نبرح ندأب الساعات الطويلة في جر الحبة والذرة والهناء من الهناء، وبعد أن تكون أضعنا ساعات أطول منها في التماسك والتفتيش عنها؛ والأسباب مطلقة مباحة منْ غَلَبَ سَلَبَ، والأمور متروكة مخالفة من أقدم لها سُخِرت له، وإن أعجز العجز أن لا تكون كلما نريد ولا نريد أن تكون، ولو صدقْتْ همة النملة منا ثم أرادتا أن تكون جواداً سابقاً أو فيلاً عظيماً لكانـت! قالـت: وما أرى طاحين إلا معدلاً من طباعنا ومجددة في حياتنا، ثم بالغة بنا أسمى منزلة في صالح الدنيا، وما في اتباعها كبير تعب ولا صغيره، فسبيلها ما شاءت لنفسها وسيبلـكنـ ما شاءـتـ لكنـ! ومن صحة التقدير وحسن التائي للعواقب البعيدة، ما لو وزـنـ يمنـافـ الأجنحةـ كلـهاـ

لرجـحـ بعضـهـ علىـ جميعـهاـ،ـ وإنـاـ كـانـاـ بـطـيـئـاتـ وـكـانـاـ نـعـمـ أـبـداـ فـمـ ضـرـرـ ذـلـكـ إـنـ كـانـاـ لـاـ نـسـأـمـ أـبـداـ،ـ وإنـ الـبـطـءـ وـالـقـوـةـ إـلـىـ زـيـادـةـ،ـ خـيرـ منـ السـرـعـةـ وـالـقـوـةـ إـلـىـ نـقـصـ،ـ وإنـاـ مـثـلـاـ مـثـلـ الذـيـ قـالـ:ـ هـيـهـاتـ إـنـ عـظـمـةـ لـاـ شـتـرـىـ بـذـهـبـ الدـنـيـاـ!ـ قـالـتـ:ـ زـعـمـواـ أـنـ رـجـلـ فـقـيرـ أـيـسـرـ بـعـدـ الـخـلـةـ الشـدـيـدـ،ـ وـأـقـبـلـ عـلـيـهـ الدـنـيـاـ بـعـدـ إـدـبـارـ طـوـيلـ.ـ فـكـانـ كـالـنـهـرـ مـقـبـلاـ عـلـىـ مـصـبـهـ:ـ إـنـمـاـ هـمـتـهـ أـنـ يـنـدـفـعـ لـاـ يـتـنـيـهـ عـنـ ذـلـكـ شـيءـ،ـ وـكـانـتـ لـاـ تـطـلـعـ شـمـسـ يـوـمـ إـلـاـ جـاءـتـهـ مـعـ أـشـعـتـهاـ أـكـيـاسـ الدـنـاـئـيرـ،ـ وـذـلـكـ مـنـ غـنـىـ الرـجـلـ وـتـيـسـيرـهـ،ـ وـجـعـلـتـ الـأـقـدـارـ الـجـلـيلـةـ تـطـرـقـ عـلـيـهـ بـابـهـ لـاـ تـهـدـأـ وـلـاـ تـنـقـطـ،ـ فـمـ يـسـتـقـبـلـ نـعـمـةـ إـلـاـ طـرـقـتـ عـلـيـهـ أـخـرىـ،ـ وـاتـخـذـ الدـوـابـ وـالـحـاشـيـةـ وـالـمـوـكـبـ،ـ فـرـكـبـ ذاتـ يـوـمـ فـنـفـرـتـ بـهـ الدـابـةـ وـأـعـرـاـهـاـ مـاـ يـعـتـرـىـ أـمـتـالـهـاـ مـنـ الـهـيـجـ وـالـتـقـمـ وـالـمـخـاطـرـ،ـ فـأـذـرـتـهـ عـنـ ظـهـرـهـ وـرـمـتـ بـهـ كـمـاـ تـرـمـيـ بـخـشـبـةـ أـوـ حـدـيدـ،ـ فـأـصـابـتـ قـدـمهـ حـجـرـاـ فـكـسـرـتـ كـسـرـاـ لـاـ اـنـجـيـارـ لـهـ،ـ فـكـانـ لـاـ يـنـهـضـ بـعـدـهـ إـلـاـ مـُـتـحـاـلـاـ وـلـاـ يـخـرـجـ إـلـاـ مـحـمـولاـ،ـ وـتـضـاعـفـتـ النـعـمـةـ وـجـعـلـتـ تـفـشـوـ وـتـمـدـ كـأـنـ فـيـهاـ رـوـحـ تـيـارـ شـدـيـدـ يـنـبـعـثـ مـنـ السـمـاءـ.ـ قـالـتـ:ـ وـلـمـ كـانـ يـوـمـ العـيـدـ خـرـجـ عـلـىـ قـوـمـهـ فـرـآـهـ طـالـبـ عـالـمـ فـقـيرـ كـانـ يـمـشـيـ مـعـ أـسـتـاذـهــ وـكـانـ أـسـتـاذـهـ حـكـيـمـاــ فـبـهـرـهـ مـاـ عـاـيـنـ مـنـ حـالـ الرـجـلـ وـقـالـ:ـ يـاـ سـيـديـ،ـ مـاـ أـجـمـلـ النـعـمـةـ وـمـاـ أـحـسـنـ أـثـرـهـ عـلـىـ صـاحـبـهـ،ـ وـإـنـ اللـهـ لـيـدـيرـ حـرـكـةـ الـأـرـضـ وـلـكـنـهـ تـرـكـ لـلـمـالـ أـنـ يـدـيرـ حـرـكـةـ أـهـلـ الـأـرـضـ فـنـحـلـهـ بـذـلـكـ شـيـئـاـ مـنـ الإـلـهـيـةـ،ـ وـمـاـ أـشـقـىـ المـحـرـومـ وـأـكـثـرـ عـنـاءـ الـفـقـيرـ،ـ وـلـيـسـ مـنـ الـبـلـاءـ أـنـ مـثـلـيـ لـمـ يـزـلـ يـحـيـاـ،ـ فـإـنـ كـلـ مـاـ تـرـاهـ فـنـعـلـكـ خـيرـ لـكـ مـنـهـ،ـ لـأـنـكـ تـنـتـعـلـ عـلـىـ قـدـمـ صـحـيـحةـ وـهـذـاـ الرـجـلـ مـاـ جـاءـهـ الـغـنـىـ يـجـرـيـ إـلـاـ لـيـقـعـدـ هوـ فـلـاـ يـمـشـيـ!ـ وـأـنـتـ تـظـنـ أـنـهـ يـبـتـاعـ بـذـهـبـهـ كـلـ مـاـ أـحـبـ عـلـىـ أـنـهـ لـاـ يـحـبـ إـلـاـ عـظـمـةـ لـقـدـمـهـ الـمـكـسـورـةـ؛ـ وـهـيـهـاتـ أـنـ تـبـيـعـ الـحـيـاةـ عـظـمـةـ بـكـلـ ذـهـبـ الـأـرـضـ!ـ قـالـ كـلـيلـةـ:ـ وـطـالـ خـالـفـ بـيـنـ النـمـلـ،ـ فـإـنـاـ طـاحـينـ مـقـبـلـةـ

تـسـعـيـ،ـ فـقـالـتـ:ـ مـاـ كـنـتـنـ فـيـهـ بـعـدـيـ؟ـ فـذـكـرـنـ لـهـ مـاـ تـرـاجـعـنـ فـيـهـ القـوـلـ وـمـاـ كـانـ الجـدـالـ عـلـيـهـ،ـ قـالـتـ:ـ أـلـاـ دـعـنـ مـثـلـ هـذـاـ النـمـلـ الدـينـ وـإـنـاـ نـحـنـ نـمـلـ الدـنـيـاـ.ـ وـقـدـ كـشـفـتـ لـكـنـ عـنـ عـالـمـ جـدـيدـ كـانـ مـجـهـوـلـاـ،ـ فـاتـرـكـنـ هـذـاـ الـقـدـيمـ وـمـاـ كـانـ تـنـعـاـشـ عـلـيـهـ،ـ وـهـلـمـمـنـ إـلـىـ عـالـمـ الـجـدـيدـ وـأـفـعـلـنـ مـاـ آـمـرـكـنـ بـهـ.ـ وـمـاـ يـكـونـ الجـدـيدـ جـدـيدـاـ بـاسـمـهـ وـلـكـنـ بـمـنـفـعـتـهـ،ـ وـلـاـ يـقـيـنـ إـلـاـ بـعـدـ تـجـربـةـ،ـ فـإـنـاـ أـنـكـرـ طـبـعـيـ أـنـكـرـتـ،ـ فـأـنـاـ

آـخـذـةـ بـظـاهـرـ الـعـلـمـ وـالـحـيـطةـ،ـ وـتـارـكـةـ لـكـنـ باـطـنـ الـعـلـمـ وـالـفـلـسـفـةـ وـسـتـرـيـنـ وـأـرـىـ.ـ قـالـتـ الـكـبـيـرـةـ مـنـ النـمـلـ:ـ إـنـمـاـ أـنـتـ مـنـ أـنـصـارـ الـقـدـيمـ وـلـنـ تـفـلـحـيـ أـبـداـ،ـ وـسـتـرـيـنـاـ فـيـ عـالـمـاـ الـجـدـيدـ أـولـاتـ أـجـنـحةـ مـتـنـىـ وـثـلـاثـ وـرـبـاعـ!ـ ثـمـ إـنـاـ نـظـرـتـ لـطـاحـينـ وـقـالـتـ:ـ أـلـاـ قـلـتـ آـنـاـ إـنـ هـوـإـ

ذـلـكـ إـلـقـلـيمـ يـنـبـتـ الـأـجـنـحةـ!ـ وـإـنـ هـيـ لـمـ تـنـبـتـ فـقـدـ نـظـرـتـ فـيـ هـذـاـ،ـ وـسـنـسـنـ كـمـ صـنـعـ إـلـيـانـ حـيـنـ لـمـ يـطـرـ فـاتـخـذـ الـطـيـارـاتـ،ـ وـأـمـتـنـعـتـ عـلـيـهـ قـدـرـةـ سـُخـرـتـ لـهـ قـدـرـةـ تـكـافـئـهـ،ـ وـسـنـحـتـالـ لـبـعـوـضـةـ فـنـاسـرـهـ وـنـذـلـلـهـاـ تـذـلـلـةـ الـآـلـةـ فـيـ الـعـلـمـ،ـ فـقـطـيـرـ بـنـاـ مـرـةـ وـتـقـعـ مـرـةـ حتـىـ إـذـاـ رـُضـنـاـهـ وـأـنـقـادـتـ لـنـاـ وـسـوـيـنـاـ بـيـنـ طـبـاعـنـاـ وـطـبـاعـنـاـ وـأـصـبـحـتـ تـطـيـرـ وـتـنـزـلـ عـنـ أـمـرـنـاـ وـتـطـبـعـتـ عـلـىـ الـطـيـرانـ،ـ وـلـدـتـ لـنـاـ مـنـ

بعد طيارات كثيرة. قال: ثم إنهم تزاحفون صفوافاً مرصوصة ومضبطن يتبعن "طاحين" وهن يتهمون أنه ما من منزلة في العلم بعيدة أو قريبة إلا وهذه الفيلسوفة خطوة هي بالغتها. قال: وينتهي إلى العالم الجديد فإذا. قال دمنة: ويحك فإذا ماذا؟ قال: فإذا كُرْة صبي ملقة في ركن من الدار، فقالت طاحين: هنا هنا، فلم يكن غير بعيد حتى غشّينها من جميع جوانبها فإذا هي في رأي العين لأنها مكتوبة بالحبر. واستوت طاحين على حَدَبة الكرة تفك فيما تجد لهن من واضح وخفٍّ وظاهر ومحْيَل، وما لبث الصبي أن عاد من المدرسة وفي جلد لذعات الضرب لأنه لم يحسن كتابة درسه، فأهوى إلى الكرة بيده ثم نظر فإذا هي سطور فوق سطور، فقال: لعن الله الكتابة أدعها في المدرسة فتمشي حروفها إلى الدار ثم ركضَ الكرة بقدمه ركضة شديدة أتت على نصف النمل وطاحت أسفله بأعلاه، فتهارب الباقيات يسعين إلى نجاهن في كل وجه ومهرب، وهو يقتفيهن بحذائه ويدوسهن حيث عرضن، فلم ينج منها إلا قليل ذهب متضعفات إلى القرية، فتلقتهم النملة العاقلة وقالت: ما أمر جاء بكل من العالم الجديد؟ فتكلمت نملة وقالت: لعن الله الجديد ومجدده وأخذه ومعطيه، إن كان والله إلا حداء صبي خبيث ودوساً وحطماً فمن لم تهلك فلن تنسى أبداً أنها من الهلاك رجعت! ولقد محصنا الامتحان والإبتلاء فما كان لنا من جديد مع طاحين المشؤومة إلا أن اشترينا حياة بعضنا بهلاك البقية، ولا جديد في عقل المجنون إلا جنون العاقل.